من مائدة الأمثال العربية
في الأكل والشرب

د. مسعود بوبو

ليست الأمثال العربية مرآة للحياة العقلية عند العرب فحسب ، بل هي راصد دقيق لما في بيئتهم من موجودات ، ولما في حياتهم من معاناة ، ولما في لغتهم من المرونة والغنى ، ولما في تجاربهم من الحكمة والعظة وحضور البديهة ، واشراق الخاطرة .. حتى ليمكن القول : أن أمثالهم ترجمان أمين لطبيعة حياتهم ، وكالهوية لمجتمعاتهم في تطورها في كل زمان ومكان .

وللعرب في الأمثال أقوال موجزة محكمة تلقي على مفهومها العام المزيد من الايضاح والتقويم ، من ذلك قول النظام (ت ٢٣٠ هـ) : « اجتمع في الأمثال أربع خلال : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية »[١] .

وقال أبو هلال العسكري : « ما رأيت حاجة الشريف الى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن ، كحاجته الى الشاهد والمثل ، والشذرة والكلمة السائرة ، فان ذلك يزيد المنطق تفخيماً ، ويكسبه قبولاً ، ويجعل له قدراً في النفوس ، وحلاوة في الصدور ، ويدعو القلوب الى وعيه ، ويبعثها على حفظه »[٢] .

ثم يقول : « .. فهي من أجل الكلام وأنبله ، وأشرفه وأفضله ، لقلة ألفاظها ، وكثرة معانيها ، ويسير مؤونتها على المتكلم ، مع كبير عنايتها ،

وجسيم عائدتها »[٣] . ويقول الزمخشري على الأمثال : « هي قصارى فصاحة العرب العرباء ، وجوامع كلمها ، ونوادر حكمها ، وبيضة منطقها ، وزبدة حوارها ، وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة .. أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى ، وقصرت العبارة فأطالت المغزى ، ولوحت فأغرقت في التصريح ، وكَنَتْ فأغنت عن الافصاح »[٤] .

هذا التقويم لمضمون المثل عند القدماء يتجه بمعاييرهم الى الايجاز ، والدقة ، والبلاغة ، والحكمة ، والشيوع ، فضلاً عن التميز بين فنون القول ..

وفي تقديم كتاب « الأمثال العربية القديمة » للمستشرق الألماني رودلف زلهايم ، يقول مقدمه د. رمضان عبدالتواب : « والأمثال عند الشعوب مرآة صافية لحياتها ، تنعكس عليها عادات تلك الشعوب ، وتقاليدها ، وعقائدها ، وسلوك أفراد مجتمعاتها ، وهي ميزان دقيق لتلك الشعوب : في رقيها وانحطاطها وبؤسها ونعيمها ، وآدابها ولغاتها . »[٥] .

وهناك من نظر الى الأمثال على أنها ظاهرة تاريخية عرفتها الديانات والشعوب، مع اشارات سريعة الى مافيها من قصص وعبر ورموز ، يقول أبو الحسن بن وهب : « وأما الأمثال ، فان الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال ، ويبيّنون للناس تصرّف الأحوال.. ولذلك جعلت القدماء أكثر آدابها ، وما دونته من علومها ، بالأمثال والقصص عن الأمم ، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش .. »[٦] الى أن يقول :

« ولهذا بعينه قص الله علينا أقاصيص من تقدّمنا ممن عصاه وآثر هواه ، فخسر دينه ودنياه ، ومن اتبع رضاه فجعل الخير والحسنى عقباه ، وصيّر الجنّة مثواه ومأواه »[٦] .

وهناك من نظر الى الأمثال بمنظار لغوي ، كما في قول المرزوقي في كتاب « الفصيح » : « والمثل جملة من القول مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول » .

وكما وصفها ابن عبد ربه بأنها :« وشي الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلي المعاني .. فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ، ولا عمّ عمومها ، حتى قيل :أسْيَرُ من مثل »[٧] .

ولقد وقف علماء العربية عند الجانب اللغوي من الأمثال وقفة معيارية تتحرّى ما في لغتها من مخالفات لأحكام النحاة ، أو اخلال بالقواعد المطّردة ، مغفلين بذلك ما تنطوي عليه من ايحاءات المعنى ، ومن طبيعة المادة الدلالية التي صيغت بها ؛ فبدا تقويمهم صناعة أكثر منه تذوقاً وثقافة عامة ..

وغني عن البيان أن الأمثال ملك المجتمعات والأحوال والمناسبات التي قيلت فيها وربما لهذه الخصوصية لم تَنْقَدْ كلها للاطراد اللغوي ، بل بقي بعضها كما تلفّظ به قائلوه أول مرة ،مع ما في صياغته من ترخّص لغوي ، أو قلة مراعاة لقواعد اللغة ، وعلى ذلك قول المرزوقي : « من شرط المثل أن لا يُغير عما يقع في الأصل ، ألا ترى أن قولهم : (أعْطِ القوس باريْها) تُسكّن ياؤه ، وان كان التحريك الأصل، لوقوع المثل في الأصل على ذلك » . أي أن القياس يقتضي فتحها ، ومن غير همز، فيقال:أعطِ القوس «باريَها»[٨] ومن مثل ذلك المثل المشهور على رواية(مكره أخاك لا بطل) والقياس يتطلب أن تكون العبارة « مكره أخوك » . ولعل أبرز ما جاء من هذا القبيل المثل القديم: « الصيف ضيّعت اللبن » الذي يضرب لمن جاء متمكناً من أمر فأضاعه من يده ، ثم جاء يطلبه بعد فواته . ومناسبته أن امرأة معتدة بنفسها كانت عند شيخ موسر وسألته الطلاق فطلقها في الصيف، ثم تزوجت من شاب فقير ، فلما دخل الشتاء ، أدركتها الحاجة الى الطعام ،فبعثت الى الشيخ تستسقيه لبناً ، فقال لها : « الصيف ضيّعت اللبن »[٩]. هذا المثل بقي على صورته التي نطق بها بتأنيث الفعل ، ولو كان الخطاب به موجهاً الى المذكر أو الجمع .

وعلى هذا الأسلوب قال الزجاج :« الأمثال قد تخرج عن القياس فتُحكى كما سمعت ، ولا يطّرد فيها القياس ، فتخرج عن طريقة الأمثال » .

وبقليل من تأمل المثل السابق : « الصيف ضيّعت اللبن » يلحظ القارىء أنه يصور تصويراً حياً مدى الحاجة إلى الطعام، ومدى العناء والاحراج النفسي في توفيره ، وما يمكن أن يلقى طالبه من المهانة عندما يصبح الطعام عزيز المنال يُلْجىء إلى ذلّ الطلب ، وبخل المطلوب منه . تلك هي الخطوة الأولى لتعليل كثرة الأمثال والأقوال التي يتردد فيها ذكر الطعام والشراب في التراث العربي.

ويمكن تعزيز هذه الفكرة من وجه آخر يعيد تقديمها للمتأملين ·· يقول ابن منظور في « لسان العرب » : « والمعصوب: الجائع الذي كادت أمعاؤه تيبس جوعاً ·· وقيل : سمّي معصوباً لأنه عصب بطنه بحجر من الجوع ·· وكان من عادتهم إذا جاع أحدهم أن يشدّ جوفه بعصابة ، وربما جعل تحتها حجراً ·· والمعصَّب : الذي عصّبته السنون ، أي أكلت ماله · وعصبتهم السنون : أجاعتهم »(١٠) ·

فاي جوع هذا الذي كان لا يُدفَع بغير تعصيب البطون بالعِصابات والخرق تحتها الحجارة ؟! وأي أثر يمكن أن يترك هذا الضنك في نفوسهم؟! وقد يكون هذا دافعاً الى الغزو ، أو القتل ، أو مذلة السؤال ، أوالرضا بالموت جوعاً ابقاء على كبرياء النفس وأنفتها ·· الرضا بـ « الاعتفاد » الطوعي قراراً لا نظير له عند أمم أخرى ·· و « الاعتفاد » : أن يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً ·· وكانوا اذا اشتد بهم الجوع وخافوا أن يموتوا أغلقوا عليهم باباً ، وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعاً »(١١) ·

ليس الجوع الغريزي وحده إذن محور القضية ، إنما هناك عقابيل الجوع وما يخلّف في النفس من عقد وجراح ، أو يرسم في الذهن والذاكرة من صور يحيلها الزمن والاختمار إلى حكم وأمثال وأقوال تتزيّا بألوان الطعام والشراب ، أو يكون ذكرهما فيها إعادة قصّ للعناء الذي لا يُمحى من الوعي الداخلي القديم ·

ولا تقحم ألفاظ الطعام والشراب على الأمثال تزيّداً أو تكلّفاً ، إنما ترد في سياقها عفو الخاطر ، أو على الفطرة والبديهة ، فيخرج المثَل مصوراً الحقائق في أجلى صورة ، مقدّماً المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة · فاذا أردت أن تصف رجلاً بالدهاء وجودة الرأي ، والأخذ بتدبير الأمور بأنجح الطرق ، ورمت أن تعبّر عن هذا المعنى بلفظ موجز يقر في نفس المخاطب حتى كأنه يراه رأي العين ضربت فيه المثل : « يعرف من أين تؤكل الكتف »(١٢) ·

وهكذا يبدو الأكل ، أو فعل الأكل موافقاً لموضعه غير هجين في بناء السياق ، أو مستجلب إليه حلية وإثقالاً ، وإن جاء شيء من مثل ذلك بدا مقبولاً من جهة خروجه على المألوف ، أو دلالته على مدى إلحاح المسألة « الطعامية » عليهم

حتى استخدموا عبارات وضعت الدلالات فيها على خلاف ما يتطلب السياق ، أو يتوقع السامع كقولهم : « جعت إلى لقائك ، وعطشت إلى لقائك • قال ابن سيده : وجاع إلى لقائه : اشتهاه ،كعطش على المثل »[١٢] ، وكأنهم كانوا بهذا يعادلون بين تشهي الطعام،وتشهي للقاء المحبوب•• ومن مثل ذلك قول شاعر من هذيل :

وانـي لأمضـي الهمّ عنهـا تجملاً وقلبي الى أسمـاء ظمآن جائع(١٣)

ومن كناياتهم في هذا الباب قولهم :امرأة جاع وشاحها، للخمصانة الهيفاء• واتسع القوم في التعبير عن هذه الحاجة الغريزية إلى الطعام والشراب ، فابتنوا عليها قيماً اجتماعية جعلت من الكرم وقرى الأضياف مناقب عالية ، وفضائل تسمو على ما سواها من الفضائل والقيم ، وصار الكرم مشغلة المدّاحين ومُسْتَرادّهم ، وفي المقابل صار البخل،ولا سيما البخل بالطعام منقصة ومادة شهية للهجاء والهجّائين ، ونحن في غنى عن استحضار أمثلة وشواهد لتبيين هذا الغرض، فهي أكثر من أن يُتخيّر بعضها.

واتّسعوا أيضاً في استقراء هذه الحاجة الغريزية ، واستخلصوا من مؤثّراتها العِبر والأحكام الشبيهة بما في عصرنا من دعوات إلى الادّخار أو الاقتصاد ، كما في قول أحد الشعراء :

كلـوا في بعـض بطنكمـو تعفّـوا فـانّ زمانكـم زمـن خميـص(١٤)

فهذه دعوة إلى الاقتصاد في الأكل تذكّر بمقولة « شد الأحزمة » اليوم • والزمن الخميص هو الذي تتفشّى فيه المجاعة •

وبدهي أننا لن نستقصي في هذه العجالة ما نطق به العرب من الأمثال التي يرد فيها ذكر الأكل والجوع وأنواع الطعام وما يدور في اطار الحقل الدلالي لهذه المسميات ، وانما قصارى القول أن نذكر منها ما يمكن أن يصلح معوانا لتعزيز ما سبق عرضه في ايجاز • ومما نذكر قول العيّار بن عبدالله الضبي : « آكل لحمي ولا أدعه لآكل »[١٥] في خبره مع النعمان بن المنذر • ومن مثل ذلك قولهم : « جوّع كلبك يتبعك »[١٦] ،وأول من قال ذلك ملك من ملوك حِمْيَر، كان عنيفاً على أهل مملكته يغصبهم أموالهم ويسلبهم ما في أيديهم • وكانت

الكهنة تخبره أنهم سيقتلونه فلا يحفل بذلك ، وأن امرأته سمعت أصوات السؤّال (جمع سائل) فقالت : إني لأرحم هؤلاء لما يلقَون من الجهد ونحن في العيش الرغد ، واني لأخاف أن يكونواعليك سباعاً وقد كانوا لدينا أتباعاً ! فرد عليها : جوِّع كلبك يتبعك • فأرسلها مثلاً • فلبث بذلك زماناً ثم أغزاهم (أرسلهم للغزو) فغنموا ولم يقسم فيهم شيئاً ، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه وكان أميرهم : قد ترىما نحن فيه من هذا الجهد ، ونحن نكره خروج المُلْك منكم أهل البيت الى غيركم، فساعدنا على قتل أخيك واجلس مكانه • وعَرف بغيه واعتداءه عليهم فأجابهم الى ذلك ، فوثبوا عليه فقتلوه • فمر به عامر بن جُذيمة وهو مقتول ،وقد سمع بقوله : جوِّع كلبك يتبعك . فقال : ربما أكل الكلب مؤدِّبه ، اذا لم ينل شِبَعَه • فأرسلها مثلاً •

وسواء أكانت هذه القصة موضوعة أم خبراً صحيحاً فهي تنطوي على درس تربوي أخلاقي يحذر من الظلم ،ويدعو ـ بطريق غيرمباشر ـ الى العدل، والى سماع صوت الحكمة ممثلاً بالكهنة، أو سماع صوت الأقربين ممثلاً بالزوجة ، والا كانت العاقبة وخيمة ،والمآل فظيعاً ، والمنقلب مدعاة لقول مثل يوشك أن يتعادل فيه الند والضد ،ويتزاوج فيه الأكل والشبع •

ومن أمثالهم : « انما هم أكَلة رأس »[١٧] جمع آكل ، مثل كتبة وكاتب • يراد بذلك القلة، أي عدّتهم عدّة يسيرة • رأس يشبعها • وأول من قال ذلك طريف بن تميم العنبري • وكانت قلةالعدد مما يُعيِّر به القوم وخاصة في معرض الهجاء • ويذكر في هذا المقام قول شاعر في هجاء قبيلة طيء :

ولو أنّ عصفوراً يمدّ جناحَه على طيءٍ في دارها لاستظلّتِ

ومن أمثالهم القديمة : « تجوع الحرة ولا تأكل بثديها»[١٨]، أي لا تهتك نفسها وتبدي منها ما لا ينبغي أن تبديه، وأول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدي ، وقيل معناه أن المرأة الكريمة ترهقها الشدة والضر وتقاسي الجوع والشظف ، وشرفها يأبى عليها أن تكون موطئاً للعار ، يضرب في الاحتراس من مدنسات المكاسب •

ومن أمثالهم : « ربّ أكلة تمنع أكلات »[١٩] وأول من قال ذلك عامر بن الظرب العَدْواني . وكان من حديثه أنه كان يدفع الناس في الحج (قبل الاسلام)، فرآه ملك من ملوك غسان ، فقال :لا أترك هذا العدواني حتى أذله . فلما رجع ذلك الملك الى منزله أرسل اليه :أحب أن تزورني فأحْبُوك وأكرمك وأتخذك خليلاً ، فأتاه قومه . فقالوا : تفِد ويَفِد معك قومك فيصيبون في جنبك ويتجهون بجاهك ، فخرج وأخرج معه نفراً من قومه ، فلما قدم بلاد الملك أكرمه وأكرم قومه ، ثم انكشف له رأي الملك ، فجمع أصحابه ، وقال : الرأي نائم والهوى يقظان ، ومن أجل ذلك يغلب الهوى الرأي . عجلتُ حين عجلتم، ولن أعود بعدها، إنا قد تورطنا بلاد هذا الملك فلا تسبقوني بريثِ أمرٍ أقيم عليه ، ولا بعجلة رأي أخِفّ معه ، فان رأيي لكم . فقال قومه : قد أكرمنا كما ترى ، وبعد هذا ما هو خير منه ، فقال :لا تعجلوا فان لكل عام طعاماً، وربّ آكلة تمنع أكلات ... وللخبر بقية نغفل استقصاءها بايراد ما ذكره القائل من « طعام » و « أكلة » و « أكلات » .. في معرض تعبيره عما يعتمل في نفسه من القلق والتوجس .

ومن أمثالهم في هذا الباب قولهم :«لا تكن حلواً فتزدرد ولا مراً فتلفظ»[٢٠] و « تزدرد » من ازدراد اللقمة أي ابتلاعها ، والمثل في غنى عن التحليل أو فضل القول ، وقريب منه المثل : « ما كل سوداء تمرة ولا كل بيضاء شحمة »[٢١] كأنّ التصور يتجه عند تأميل الخير الى ما يؤكل ، أو كأن رمزي السواد والبياض يتمثلان بالتمر والشحم مما يؤكل .

ومن أمثالهم في تقرير حقائق الأشياء قولهم : « كلام كالعسل وفعل كالأسل »[٢٢] ، والأسل نبات له أغصان كثيرة شائكة الأطراف من الفصيلة الأسلية ، وتصنع منه الحُصر والحبال . وسميت الرماح والنبال أسلاً على التشبيه . ويضرب هذا المثل في اختلاف القول والفعل ، كأنّ جمال اللغة لن يُعطى حقه ما لم يُشبّه في التذوق والحلاوة بالعسل . وطريق هذا الكلام إلى الأذن أو القلب ، أما الذائقة فباللسان، ولكن المجاز أعلى من شأن الموصوف حين اتّكأ على الازواج والسجع اللغويين .

ومن أمثالهم في هذا المجال « الغذائي » : « أقرى من آكل الخبز »[٢٣] مثل

يضرب في الكرم الذي عرف عن عبد الله بن حبيب العنبري ، وكان سيد بني العنبر في زمانه ، ويسمى آكل الخبز ، لأنه كان لا يأكل التمر ، ولا يرغب في اللبن . والحديث أصلاً عن « قِراه » أي عن كرمه بصفة عامة . ولكن اتفق أن كان لقبه على علاقة بالأكل ..

وعلى غرار هذا المثل قولهم : «أقرى من مطاعيم الريح »[٢٤] جمع مطعام ، وهم قوم من العرب الأجواد ، منهم : كنانة بن عبد ياليل الثقفي، ولبيد بن ربيعة وأبوه .. وكانوا إذا هبت رياح الصَّبا أطعموا الناس ، وخصّوا الصَّبا لأنها لا تهب إلا في جدب . وهذا نظير سابقه، ومثلهما قولهم : أجود من كعب (كعب بن مامة الايادي)[٢٥] ، وقولهم : أجود من حاتم (حاتم طيء)[٢٦] ، وهذا كله جود يتجه إلى الاطعام في المقام الأول ، وإن قُرن أحياناً بما يشجّع على قبوله والاقبال عليه كالترحيب والمحادثة والمضاحكة ..

ومن أمثلتهم : « ألأم من راضع اللبن »[٢٧] الذي قيل في معرض البخل ، في رجل من العرب كان يرضع اللبن من شاته بدلاً من حلبها في وعاء ، حتى لا يسمع أحد صوت الحلب ويطمع في شيء منه ، ويذكّر هذا ببعض أمثلتهم في البخل كقولهم : « أبخل من حباحب »[٢٨] و « أبخل من مادر »[٢٩] ..

إن تردد ذكر ألفاظ الأطعمة والمآكل في الأمثال العربية سيبدو معلّلاً عندما نستقرىء طبيعة حياة العربي قديماً ، وعندما نتأمل أدبه الذي يتحدث باستفاضة عن القحط والجدب والسنين العجاف ، والرحلة لانتجاع الكلأ ، وقرى الضيف واستنباح الكلاب في الليل للاهتداء إلى المساكن الآهلة ، واستيقاد النيران للاستدلال عليها ، أو لاستدعاء التائهين وإيوائهم وإطعامهم .. والدعوة إلى تثبيت هذه التقاليد في مجتمعاتهم ليفيد منها الجميع الذين سيكونون يوماً معرضين لمثل هذه الضوائق والحاجات ..

وهذه الظاهرة مألوفة في الشعوب والمجتمعات كلما ابتعدت عن الحواضر أو المدن المزدحمة ، وتوغّلت في الجبال أو الصحارى حيث تضيق دائرة اهتمام الانسان ، وتتقلص حاجاته لتنحصر في الماديّات التي في طليعتها الطعام والشراب، ومن هنا نفهم أثر الأكل في الأمثال ، وفي الأحاديث والأشعار والأسمار ..

إن فن الحديث عند الأفارقة يعتمد على الأمثال اعتماداً واسعاً ، ويقول شعب (ايبو) : « إن الأمثال إدام الكلام، فهي زيت النخيل الذي تؤكل به الكلمات » • فتأمل كيف تصير الأمثال ملح طعام ، ومادة من مواد بناء هذا البنيان ، أو المضافة ؟!

ويقوّي شيوع الأمثال وأثرها أن الله عز وجل قد ذكرها في الكتاب العزيز(٣٠) ، وأن النبي الكريم ﷺ ذكر أحاديث جرت مجرى المثل في دائرة الطعام والشراب ، كقوله عليه السلام :« لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » وقوله : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وقوله : منهومان لا يشبعان : طالب دنيا وطالب علم » •

وتجدر الاشارة أخيراً إلى أن هناك طائفة متنوّعة من الأمثال الحديثة انطوت على ألفاظ من دائرة الطعام والشراب ، بعضها متوارث عن السلف ، وبعضها من معطيات التطور الذي أملته الأعراف والتقاليد والمؤثرات الاجتماعية فشاع في أقطار الوطن العربي بعبارات مختلفة أو متقاربة تبعاً للهجات المحلية ، كقولهم : « كلْ كما تشتهي والبس على ذوق الناس» ، أو « كما يعجب الناس »..
وكقولهم : « النار فاكهة الشتاء » ، وغير خفيّ أن الفاكهة في دلالتها المطلقة تتجه بالذهن إلى الأكل • وقولهم : « من لا يأكل بيده لا يشبع » ، وله في اللغة المحكية نطق آخر •• وقولهم : « من لا يكون ذئباً أكلته الذئاب » وقولهم : « اعط خبزك للخباز ولو أكل نصفه » ، وكالمثل اليمني : « يصيح مع الراعي ، ويأكل مع الذيب » ، وكالمثل الشعبي : « بَدّك(بِوُدّك) تاكل العنب والاّ قتل الناطور » على اختلاف رواياته • والمثل الشعبي : « تغدّاه(تَغَدّه) قبل ما يتعشّى بك » على اختلاف رواياته(٣١) •

وإذا ما خرجنا من إسار الأمثال قليلاً وجدنا أصداء وظلالاً تمتد بدلالات الطعوم وألفاظها إلى عبارات الخطاب والمحادثة والشعر ، من ذلك ـ مثلاً ـ ما رواه المبرد في « الكامل » قال :

« .. ودَعَت أبا الحارث جُمَّيْزَ واحدة" كان يحبها ، فجعلت تحادثه ولا تذكر الطعام ، فلما طال ذلك به قال: جعلني الله فداك ، لا أسمع للغذاء ذكراً ؟! قالت : أمَا تستحي ؟ أما في وجهي ما يشغلك عن ذا ؟ قال لها : جعلني الله فداك ، لو أن جميلاً وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان شيئاً لبزق كل واحد منهما في وجه صاحبه وافترقا ، وقال أعرابي :

وقد رابني من زهدم أن زهدماً ... يَشُدّ على خبزي ويبكي على جُملي
فلو كنتَ عُذْريَّ العلاقة لم تكن ... سميناً ، وأنساك الهوى كثرة الأكل(٣٢)

يشير الى أن قبيلة عذرة تُشغل عن الأكل بالحب العذري فلا يسمن أبناؤها ، وفي الكلام مغمز من كثرة حب الأكل لا يخفى ، على غرار ما قاله يزيد ابن عمرو بن الصعق الكلابي يهجو تميماً، قال :

ألا أبلغ لديك بني تميم ... بآية ما يُحبّون الطعاما(٣٣)

وقريب من ذلك قول مهوّش الفقعسي ، أو أبو الهوس الأسدي :

اذا ما مات ميتٌ من تميم ... فسَرّك أن يعيش فجيء بزاد
بخبز أو بتمرٍ أو بلحمٍ ... أو الشيء الملفف في البجاد
تراه ينقب البطحاء هولاً ... ليأكل رأس لقمانَ بن عادٍ(٣٤)

ومن هذه الطعوم ما يستعار مجازاً لما لا يشاكله أو يوافقه ، كقولهم : كلامها كالعسل ، وحديثها كالشهد ،قال أبو حيّة النميري :

حديث اذا لم تخش عيناً كأنّه ... اذا ساقطته الشَّهدُ بل هو أطيب

وقال أبو نواس :

أحللتِ في قلبي هواك مَحَلّةً ... ما حلّها المشروب والماكول

وعن الأصمعي قال : كان بالبصرة أعرابي من بني تميم يتطفل على الناس، فعاتبته على ذاك فقال : والله ما بنيت المنازل الا لتُدخَل، ولا وضع الطعام الا ليؤكل . وقال شاعر :

فلو أكلت من نبت دمعي بهيمة لهيّج منها رحمة حين تاكله

يريد ان ما ينبت بسقيا دمعه يستثير شفقة البهيمة حين تاكله من شدة لوعته وحرقته في هواه ·

ولم يقصروا كلامهم في هذا الميدان على الحلاوة وحدها ، وانما اتسعوا به فعبّروا بالمرارة عن بعض الأحوال والمشاعر ، كما في قول أحد الشعراء[٣٥] :

فان تك سلمى قد أمرّ حديثها فقد كان يحلو مرّة ويطيب

وأشركوا العطش ـ قرين الجوع ـ في عواطفهم ومعاناتهم العاطفية ، قال من ذلك كعب بن جعيل التغلبي (اسلامي كان زمن معاوية) :

فكان واياها كحرّان لم يُفق عن الماء ـ اذ لاقاه ـ حتى تقدّدا

الحران : العطشان ، ومعنى تقدّد : تشقق معاه لكثرة ما شرب من الماء ! وصف عاشقاً لقي محبوبته وهو شديد الشوق اليها ، فكان حاله معها كحال رجل شديد العطش ، ظفر بالماء فأكثر منه حتى هلك ! وانما خص الماء بالذكر لأن العرب تقول : ظمئت الى لقائك ، وعطشت الى لقائك ، فيمثلون اشتياق المحب الى المحبوب باشتياق الظمآن الى الماء ، ألا ترى الى قول الشاعر :

أرى ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل الى الورود

وقال آخر :

أؤمّل أن أعلّ بشرب ليلى ولكن لا سبيل الى العُلول[٣٦]

ومن أقوالهم في هذا : « فلان من موضع كذا على قدر مَجَاع الشبعان ، وعلى قدر مَعْطَش الريّان »[٣٧] · وتقول العرب : « سكت فما نطق بحلوة ولا مرة »[٣٨] · ومن أمثال العرب في هذا الباب : « اسقِ رَقاشِ إنها سقّاية »[٣٩] ·

ويروى : سقّاءة وسقّاية على التكثير ، والمعنى واحد ، وهذا المثل يضرب للمحسن أي أحسنوا إليه لاحسانه ·

ويدخل في هذا الاطار سُلْوان العاشقين ، فمما قيل فيه :

« السُّلوانة خرزة تُسحق ويُشرب ماؤها فيسلو شارب ذلك الماء عن حب من ابتُلي بحبه ·· وأنشد :

يا ليت أنّ لقلبي من يعلله أو ساقياً فسقاني عنكِ سلوانا(٤٠)

ولا يتسع المقام للحديث المتشعب الذي يغتني بألوان متعاقبة متغايرة من الابداع الأدبي الذي ينعقد على « الشرب والشراب والسقيا·· » مجتازاً دائرة الأمثال التي أردناها محطة نتوقف فيهالنتزوّد بقبسه العجلان ·· ولنشير في إيجاز شديد إلى أنالمأثورات الأدبية التيتناقلتها الأجيال العربية لم تأت من فراغ ولا ارتجالاً ، وإنما غرستها الحاجة وتمثّلها العقل والذاكرة تحت الوطأة بعد الوطأة ، فساغ لهم أن يقولوا ، « أكل الدهر عليها وشرب » ، وأن يقولوا : عضنا الجوع ، ويقولوا :

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه ولا يعضّ على شرسوفه الصّفَرُ

لا يتأرى : لا يتحبّس ويتلبّث · والصفر : فيما يزعم العرب، حيّة تكون في البطن إذا جاع الانسان عضّته ،وقد كذّبه النبي عليه السلام : بقوله : « لا عدوى ولا هامة ولا صَفَر » ·

وتجوّزوا فانتقلوا بالطعم من حاسّة الذوق إلى اللذة التي نسبوا إلى القلب مآلها حين قالوا : « ليس لما تفعلطعم » الطعم : اللذة والمنزلة من القلب· وقال أبو خراش الهذلي :

واغتبق الماء القَراح وأجتزي اذا الزاد أمسى للمزلّج ذا طعمِ

أي ذا منزلة من القلب ولذة عنده .وقال آخر :

ألا مَنْ لنفسٍ لا تموتُ فينقضي شقاها ولا تحيا حياة لها طعمُ

أي لها لذّة(٤٢) ·

☆ ☆ ☆

□ الحواشـي والاحـالات :

١ ـ مجمع الأمثال للميداني (ت ٥١٨ هـ) ص ٦ • تحقيق : محمد محيي‌الدين عبدالحميد ـ ط ٣ ـ دار الفكر ـ ١٩٧٢ •

٢ ـ كتاب جمهرة الأمثال • ص ٤ ج ١ ـ حققه وعلّق عليه‌ووضع فهارسه محمد أبو الفضل ابراهيم ، عبدالمجيد قطامش ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ط ٢ ـ ١٩٨٨ •

٣ ـ نفسه ص ٤ـ٥ ـ ج ١ •

٤ ـ الزمخشري « المستقصى في أمثال العرب ـ ج ١ ـ ص‌ب‌ـج ـ ط ٢ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ١٩٨٨ •

٥ ـ الأمثال العربية القديمة ص٧ ـ تاليف المستشرق الألماني‌رودلف زلهـايم ، ترجمة د. رمضان عبدالتواب ـ مؤسسة الرسالة ـ ط ٤ ، بيروت ـ لبنان ١٩٨٧ •

٦ ـ البرهان في وجوه البيان، ص١٤٥ تحقيق: أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي ، بغداد ١٩٦٧ •

٧ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ـ ج ٣ ـ ص ٢ بتحقيق‌محمد سعيد العريان ـ دار الفكر ، بيروت ـ لبنان ط ١ •

٨ ـ وعلى ذلك قول أحد الشعراء :

يـا باريَ القـوس بريـاً ليس يحكمـه لا تفسِدِ القوس أعط القوس باريها

وفي « المستقصى من أمثال العرب » : ج ٢٤٧/١ قيل ان الرواية عـن العرب « باريهـا » بسكون الياء لا غير ، يضرب في وجوه تفويض الأمر الى من يحسنه ويتمهر فيـه • وانظر « الفـاخر » للمفضل بن سلمة ص ٣٠٤ ، تحقيـق : عبدالعليم الطحاوي ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ ، حيث قال : أعط القوس باريهـا : أي : رد الأمر الى العالم به • ويقال : ان أول من قال ذلك الشاعر « الحطيئة » في قصة له مـع سعيد بن العـاص •

٩ ـ قال أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) في «جمهرة الأمثال» ص ٧ : « والأمثال تحكى ؛ يعنون بذلك أنها تضرب على ما جاءت عـن العرب ، ولا تغير صيغتها ، فتقول : الصيف ضيعت اللبن ، فتكسر التاء لأنها حكاية » •

١٠ـ لسان العرب لابن منظور : عصب •

١١ـ اللسان : عفـد •

١٢ـ جاء في كتاب « روائع الأمثال الشائعة » للدكتور محمد توفيـق أبو علي (ط ١ ، دار النفائس ، بيروت ـ لبنان) ص ١٥٤ : « فلان أعلم من حيث تؤكل الكتف : يضرب‌لمن جرّب الأمور ودرى مآخذها ، وعلم مواردها ومصادرها ، وذلك لأن لحم الكتف اذا أكل من أعلاه تناثر ، واذا أكل من لحم الغضروف لم يتأتّ لآكله ، وقيل : اذا أمسك منها بطرف الغضروف، ربما سقطت فتربت (من‌التراب)، واذا أمسكها بالطرف الذي فيه الحَنَق (نقرة رأس الكتف) أمن ذلك • وانظر : مجمع الأمثال للميداني ٤٢/١ ، والمستقصى للزمخشري ٤١٣/٢ •

١٣ـ اللسان ، وأساس البلاغة : جـوع •

١٤ـ الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) : أساس البلاغة ـ تحقيق : عبدالرحيم محمود ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان ١٩٧٩ ـ مادة : خمص •
والمراد : في بعض بطونكم ، يقال: أكل في بعض بطنه ، اذا أكل دون الشبع ، وأكل في بطنه اذا امتلأ وشبع •

١٥ـ الفاخر للمفضل بن سلمة ص ٦٨ ، مجمع الأمثال ٤٢/١ •

١٦ـ نفسه ص ١٥٨ ، ومجمع الأمثال ١٦٥/١ •

١٧ـ نفسه (الفاخر) ص ٢٥٧ •

١٨ـ الفاخر ، ص ١٠٩ ، وجمهرة الأمثال للعسكري ١٨٢/١ ، والمستقصى للزمخشري ٢٠/٢ ٠
١٩ـ الفـاخر ، ص ١٧٤ ٠
٢٠ـ نفسه : ٢٤٧ ٠
٢١ـ نفسه : ١٩٥ ٠

٢٢ـ مجمع الأمثال ١٣٣/٢ ، وانظر « المعجم الوسيط » : أسل ، و « روائع الأمثال الشائعة » ص ١٣٤ ٠

٢٣ـ جمهرة الأمثـال ١٣٤/٢ ، مجمع الأمثـال ١٢٨/٢ ، المستقصى ٢٨٠/١ ، روائع الأمثال الشائعة : ٣٣ ٠

٢٤ـ جمهرة الأمثـال ١٣٤/٢ ، مجمع الأمثـال ١٢٧/٢ ، المستقصى ٢٨٢/١ ، روائع الأمثال الشائعة ٣٣ ٠

٢٥ـ جمهرة الأمثـال ٣٣٨/١ ، مجمع الأمثـال ١٨٣/١ ، المستقصى ٥٤/١ ، وثمـار القلوب في المضـاف والمنسوب للثعالبي ١٢٦ ٠

٢٦ـ المستقصى ٥٣/١ ، مجمـع الأمثال ١٨٢/١ ، جمهرة الأمثال ٣٣٦/١ ، ثمار القلوب ص ٩٧ ٠

٢٧ـ انظر « روائع الأمثال الشائعة » ص ٩١ ٠

٢٨ـ مجمع الأمثال ٢٥٣/١ ، المستقصى ١٠٨/١ ٠

٢٩ـ مجمع الأمثال ١١١/١ ٠

٣٠ـ في مثل قوله تعالى : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً) و (ضرب الله مثلاً كلمة طيبة) ٠ وانظر مجمع الأمثال للميداني ص ١ـ٢ ٠ وثمة ألفاظ تتضمن الاشارة الى الاكل ، ومشتقاته يتوزّعها نحو /١١٠/ مئة وعشر آيات من القرآن الكريم في سور مختلفـة ، وقد استعمل بعضها على المجاز كقوله تعالى : (إن الذين ياكلون أموال اليتامى ظلماً)، سورة النساء : ١٠ ، وقوله تعالى : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) في سورتي البقرة: ١٨٨ ، والنساء: ٢٩ ٠ وجـاء ذكر الاكل في الكتاب العزيز بمعنى الغيبة ، في الآية : (أيحب أحدكم أن ياكل لحم أخيـه ميتـة فكرهتموه) سورة الحجرات : ١٢ وجاء في لسان العرب / أكل : والأُكلة والإِكلة بالضم والكسر : الغيبـة ، وانـه أُكلة للناس أي غيبة لهم ، يغتابهم ٠

٣١ـ عن « روائع الأمثال الشعبية » الصفحات : ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ٠
٣٢ـ الكامل للمبرد : ج ١٣/٢ ، ط. مؤسسة المعارف ببيروت ـ لبنـان ٠
٣٣ـ نفسه ج ١٠٠/١ ٠
٣٤ـ نفسه ٠

٣٥ ـ نسبه ابن دريد في أماليه (ص ١٠٢) الى عتبة بن كعب بن زهير ٠

٣٦ـ انظر كتاب : الحلل في شرح أبيات الجمل لابن السيد البطليـوسـي ص ٣٦٦ ، تحقيـق : د. مصطفى امـام ، ط. القاهرة ١٩٧٩ ٠

٣٧ـ أساس البلاغة : جـوع ٠
٣٨ـ اللسان : حـلا ٠
٣٩ـ اللسان : سقى ٠
٤٠ـ اللسان : سـلا ٠
٤١ـ اللسان : صـفر ٠
٤٢ـ الفـاخر : ٢٦٦ـ٢٦٧ ٠